الفصل الثاني

نماذج من الواقع المعاصر

ـ لقاءات مختلفة ـ

اللقاء الأول مع الشيخ الدكتور أحمد كفتارو

تكلمنا عن الأجيال السابقة ، ورأينا شرائح مختلفة من الأئمة والفقهاء المجتهدين ثم عرضنا نماذج من الأتباع النجباء ، ثم المقلدين ثم المتعصبين . . ثم ما آل إليه التعصب . .

جمود وتعصب وتفرقة مذهبية ، أتت على الإسلام من أناس مغرضين ناقمين على الإسلام وأهله ، أو من أناس جاهلين . . وفي تربة فقيرة من تعاليم الإسلام ، جاهلة به ، وجدت مرتعاً لها ، فأنبتت فيها ما أساء للإسلام والمسلمين ، حيث جعل الفرقة والتباغض والتدابر داءً عُضالاً في المجتمع الإسلامي ، حتى ظن كثير من الناس أن الإسلام هو السبب في كل هذا . . ويجب التخلي عن الإسلام والتحلي بوشاح العلم والتقدم المعاصر ـ أسوة بالدول المتقدمة ـ وجهلوا أن هذا الوشاح يسدل تحته السموم والأحقاد على الأمة الإسلامية . . ومِن جَهْل الجهال وعدم تبصر المتبصرين راحت هذه الإشاعات والمقولات يُرَوِّجُ لها في بلاد الإسلام . .

في هذه الظروف لا بد لنا من رؤية معاصرة تعالج التعصب المذهبي الفقهي ، وغير الفقهي . . ومثيريهما .

نبدأ برجل ترعرع في بيت علم ودعوة إلى الله تعالى . . جاب المشرق والمغرب برحلاته المتعددة من أجل لمّ شمل المسلمين من جهة ، ثم دعوة العالم إلى الإسلام ، وإظهاره على حقيقته الناصعة من غير جمود ولا رجعية من جهة ثانية .

جاء في كتاب عبقريات : (ـ يعمل وحدهُ أكثر من دولة !

ـ نذر نفسه وحياته من أجل إعلاء كلمة الله .

ـ طاف أنحاء العالم ، شرقه وغربه ، داعياً إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

ـ ما عقد مؤتمر إسلامي ، إلا كان في طليعة الحضور .

ـ خلال السنوات الطوال ، التي قضاها الشيخ أحمد في منصب الإفتاء ، برهن على أنه قائد حركة من الحركات الإسلامية ، وأخ كريم لجميع العاملين في هذا الحقل)[1] .

ويصف إيجابية الدعوة والعمل الإسلامي فيقول :

(فعندنا طلاب وطالبات من ٥٢ جنسية من كل أنحاء العالم ، وفدوا إلينا مبعوثين من مراكزهم ومدارسهم وإداراتهم الإسلامية من داخل سورية وخارجها ، بعد أن تشكلت لدى إداراتهم القناعة بأهمية ما يقدمه المجمّع للطلبة من التعليم والتربية والحكمة والأسلوب الإيجابي المنفتح على كل الناس ، ففي مجمّع ـ أبي النور الإسلامي ـ نحو ستة آلاف طالب وطالبة ، منهم الصوفي والسلفي والشافعي والحنفي وهناك الشيعي . . وهم ينتمون إلى معظم التجمعات الإسلامية في العالم)[2] .

---

(١) العطري ، عبد الغني ، عبقريات ، دار البشائر ، دمشق ، ط١ ، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م : ص ١٦٢ .

(٢) نداف ، عماد ، الشيخ أحمد كفتارو يتحدث ، دار الرشيد ، دمشق ، ط١ ، =

هذا العمل الإسلامي الكبير والمتواصل تتالت نداءاته في المجالس العامة والخاصة . . على المنابر ومقاعد التدريس ، في الصحف والمجلات وأجهزة التلفـاز ، تريد جمع الشتات والاحترام المتبادل بين جميع فئات المسلمين . . مسيـرة عمرها يُناهز مئة سنة ، بدأها الشيخ أميـن كفتـارو[1] ، ثم جاء ولده الشيخ الدكتور أحمـد كفتـارو المفتي العام للجمهورية العربية السورية ورئيس مجلس الإفتاء الأعلى ، مؤسس مجمّع أبي النور الإسلامي بدمشق .

ففي الخطاب الذي ألقاه في جامعة طهران يعرض فيه آفة التفرقة جراء التعصب المذهبي الممقوت ، ثم يسأل :

(هل يوجد في عالمنا الإسلامي اليوم العدد الكافي وبالكيفية المطلوبة من العلماء الأكفاء ليقدموا الدواء الشافي لعالمنا المريض؟ والجواب :

إن طلاب العلم اليوم بحاجة إلى برنامج فقهي عملي تربوي فكري ، هم بحاجـة إلى ثورة تثقيفية تحررية من الجمود والتفرقة المذهبية . .)[2] .

وتحت عنوان « المذهبية سبب نكبة المسلمين منذ ألف سنة »[3] يقول الداعية الإسلامي :

= ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م : ص ١٥٨ .

(١) الشيخ محمد أمين كفتارو (١٨٧٧ـ١٩٣٨م) : قام بتأسيس نواة دعوة إسلامية انتشر ضياؤها وآثارها فيما بعد في كثيرمن بلدان العالم العربي والإسلامي،وكان يُعرف بالشافعي الصغير ، وكان الناس يقصدونه من أماكن شتى لعلمهم أنه يحفظ كتاب الله تعالى، ويشرح الفقه بأسلوب جيد بعيدٍ عن التعصب المذهبي.

(٢) نص الخطاب موجود في دار القرآن التابع لمجمع أبي النور الإسلامي بدمشق . وفي كتاب الدعاة والدعوة الإسلامية للدكتور حسن الحمصي : ٢/ ١٠٣١ .

(٣) مجلة العالم ، العدد ٢١٤ ، تاريخ ١٩ آذار ١٩٨٨م/ ٣٠ رجب ١٤٠٨هـ : ص ٣٢ـ٣٣ .

(المذهبية كانت سبب نكبة المسلمين عبر حوالي ألف سنة وحتى الآن ، وما لم نرجع إلى إسلام النبي ﷺ وإسلام تلامذته ومدرسته التي رباهم فيها ، الإسلام الواحد ، فسنبقى كما نحن ، بل سنزداد تخلفاً وتقهقراً إلى الوراء . . إننا نحتاج إلى إنشاء جيل جديد آخر من رجال الدين الذين يبنون على إسلام القرآن ، بعيداً عن التعصب المذهبي وأخطاء رجال الدين في العصور المختلفة ، فلا نزال نتمسك بكثير من آرائهم وهي سبب تخلفنا . .

وفي جوابه على دور الاجتهاد في ترسيخ الوحدة الإسلامية في إطار تعددية المذاهب يقول :

أولاً ـ تعددية المذاهب ، أنا شخصياً من بداية نشأتي والمدرسة التي نشأت فيها هي البعد عن تعددية المذاهب ، والمدرسة مدرسة والدي ، فوالدي كان من كبار العلماء والمربين ، ربى الكثير من رجالات دمشق من وزراء وقضاة وحكام وعلماء ، وكان له مذهب واحد هو مذهب القرآن المشروح بسنة النبي ﷺ . .

أما أن نتعصب لرأي شخص من سلفنا الصالح مع إخلاصهم وعلمهم فهذا خطأ في فهم الإسلام ، لأن أصحاب المذاهب أنفسهم لم يُسموا طريقتهم بالمذهبية ، لكن المتعصبين لهم بعد وفاتهم سموا طريقتهم بالمذهبية ، فكان كل واحد من المجتهدين يقول : إذا صح الحديث فهو مذهبي ، أي أنا مذهبي طريقة النبي ﷺ . فأحاديث النبي ﷺ موجودة والقواميس موجودة والشروح موجودة ، وهناك أمور اجتهادية في المذاهب كانت لأمور طرأت في زمان ومكان معين ، لأنه باختلاف الزمان والمكان يجب أن تختلف الأحكام . . نحن نحتاج إلى إسلام قرآني ، أو إلى إسلام بلا تعصب مذهبي مع احترامنا لكل من سبقنا من الأئمة (. . واليوم يجب

أن يكون الاجتهاد في بناء المصانع ، في بناء التكنولوجيا والهندسة الزراعية ، في البناء الاقتصادي والفكري ، في وحدة المسلمين . .)[1] .

وفي ندوة التقريب بين المذاهب ، بدعوة من المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم يقول سماحة الشيخ الدكتور أحمد كفتارو :

(والدعوة إلى الوحدة الإسلامية مطلب عظيم ، ينبغي أن نسعى إلى تحقيقه على أسس علمية موضوعية . . لا نخلط بين تحقيق الوحدة الإسلامية ، وبين إلغاء المدارس الاجتهادية الفكرية ، التي هي مظهر ثراء هذه الأمة في الفقه والتشريع وحرية الفكر .

هناك من يتصور ، أن الوحدة الإسلامية لن تقوم إلا إذا ضربنا بمعاول الهدم جهود أئمة الفقه الإسلامي ، وأعلنا البراءة من مذاهبهم ، وأحرقنا فكرهم واجتهادهم . . ولا شك أن ذلك يؤدي إلى ضياع الشريعة أكثر مما يؤدي إلى وحدة الأمة . . والتقريب ـ بين المذاهب ـ هو الذي يتضمن احترام التراث الفقهي الذي أنتجته عقول أئمة كل مذهب ، ثم البحث عن الخيوط الجامعة التي تؤلف بين تلك النتائج بسبب متين ، يجعل اجتهادها وفكرها فقهاً متكاملاً يكسب المشتركين في دوائر القرار في العالم الإسلامي غِنىً فقهياً وعلمياً ، يكفل إيجاد الحلول لأكثر المشاكل استعصاءً في المجتمع ، ولا يحول دون الاحترام والإجلال لاختيارات سائر أئمة الفقه الإسلامي ، سواء اعتُمدت آراؤهم في التشريع أم لم تُعتمد ، وسواء اتفقنا على الأخذ برأي بعينه أم لم نتفق . .

ثم يُعالج سماحته داء التفرقة ويُقدم لها الدواء فيقول :

فالاختلاف والتفرق هما الداء ، ولا تتعدى أسبابهما أحد إطارين ، هما :

---

(١) المرجع السابق .

١ـ الأسباب الفكرية المتمثلة في الاختلاف في المنهج ، والاجتهاد بين كل مذهب من المذاهب .

٢ـ الأسباب الأخلاقية . . متمثلة في الغرور، وسوء الظن بالآخرين، وحب الذات والزعامة، وهو التعصب المقيت لشخص أومذهب .

ويأتي جواب سماحته في الدواء فيقول : نبدأ بأهم الأسس الفكرية :

١ـ إبقاء الاجتهادات في إطارها الفكري : لأن اجتهادات الفقهاء هي مظهر ثراء هذه الأمة في الفقه والتشريع وحرية الفكر . وذاك هو الاختلاف الرحمة .

٢ـ اتباع المنهج الوسط وترك التطرف : لأن الوسطية والاعتدال هما الركن الركين في بناء الوحدة .

٣ـ التركيز على المُحكمات دون المتشابهات : نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه .

٤ـ ضرورة الاطلاع على الرأي الآخر : لأن الإنسان عدو ما يجهل ، وأن الاطلاع على الرأي الآخر ضرورة حتمية لأجل أن نتقارب .

٥ـ الانشغال بهموم الأمة الكبرى .

أما الأسس الأخلاقية فأجمعها فيما يلي :

١ـ الإخلاص والتجرد من الأهواء .

٢ـ التحرر من التعصب سواء كان لأشخاص أم لمذهب أم لطوائف .

٣ـ إحسان الظن بالآخرين .

٤ـ ترك الطعن والتجريح .

٥ـ الحوار بالتي هي أحسن .

ولقد عاش علماء هذه الأمة عاملين متجاورين متزاورين ، شافعية

وحنفية ومالكية وحنابلة ، وكان التعصب المذهبي خافتاً ضعيفاً في الجملة ، توقظه السياسة بين الحين والآخر . . ومن المؤكد أن هذا التعصب اليوم قد آل إلى زوال ، وأصبح في حكم المتفق عليه أن سيرة الاجتهاد اليوم منوطة بالمصادر المتفق عليها من الكتاب والسنة والإجماع والقياس ومصالح المسلمين ، دون التقيد باختيارات أئمة بأعيانهم في أصول الاستنباط من المصادر)[1] .

وبعد أن تعرفنا على بعض أعمال هذا الداعية الإسلامي ، كان لنا لقاء جرى فيه الحوار التالي :

س١ سيدي ما المنهج الفقهي للعلامة المرحوم الشيخ محمد أمين كفتارو ؟ .

ج١ كان والدي يدعو إلى نبذ التعصب المذهبي وفق منطوق القرآن الكريم . قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾[2] .

فالذي يدعو إلى التفرقة بين المذاهب طريقاً إلى تشتيت المسلمين جاهل غيرُ عالم بدينه ، لأن المذاهب مدارس فقهية للتوسعة على المسلمين لا للتضييق عليهم . ومن هنا كان والدي رحمه الله تعالى يدعو إلى إزالة مظاهر التعصب المذهبي الذي كان سائداً وعلى أشده في تلك الحقبة ـ القرن التاسع عشر وما بعده ـ فكان يُدَّرس الفقه على المذاهب الأربعة . . واعتمد في تدريسه على كتاب بداية المجتهد لابن رشد

---

(١) ندوة التقريب بين المذاهب المنعقدة في الرباط ، خلال الفترة٢٧ـ٢٩/ ٨/ ١٩٩٦م. ونص الكلمة موجود في دار القرآن التابع لمجمع أبي النور الإسلامي بدمشق .

(٢) سورة (الأنعام/ ١٥٩) .

القاضي المالكي الذي جمع وقارن بين مختلف المذاهب الفقهية ورجح أقواها وأنسبها وإن خالف مذهبه . كذلك كان يدرس كتاب الميزان الكبرى للإمام الشعراني الذي عمل على جمع كلام الأئمة وشهاداتهم ببعضهم وحبهم وتآلفهم واجتماعهم على الكتاب والسنة . . ثم عذر بعضهم بعضاً .

ولما كانت صلاة الظهر تُصلى عقب صلاة الجمعة[1] في معظم مساجد دمشق ، أفتى بترك صلاة الظهر والاكتفاء بصلاة الجمعة ، متحملاً بذلك المتعصبين والجامدين، حتى إنه كتب رسالة في هذا الشأن سماها : رسالة في جواز تعدد الجمعة في البلد الواحد وبيان أنها تقوم مقام فريضة الظهر .

س٢ ـ سيدي سماحة المفتي العام . من خلال دراساتكم الفقهية هل رأيتم نماذج من التعصب المذهبي ؟ .

ج٢ ـ إنني في الواقع درست الفقه على شيوخ عدة، وكان منهم المتعصب للمذهب الشافعي، حتى إنه كان يعدُّ الدين هو المذهب الشافعي فقط، غفر الله لهم. وإنما كان ذلك لقصور في فهم الشريعة الإسلامية من جهة، وثانياً: لأنهم عندما تلقوا هذه العلوم نقلوها كما تلقوها من غير تمحيص. . ورحم الله والدي الذي سهر على تربيتي وتهذيبي ، ولولا توجيهه لي وعنايته بي بالتربية الروحية التي سماها القرآن الكريم بالتزكية، وهي إحدى مهام النبي ﷺ لكنت واحداً منهم يقول الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[2] .

---

(١) في الفقه الشافعي : تصلى صلاة الظهر عقب صلاة الجمعة احتياطاً لمن صلى ببلد تعددت فيه المساجد لحاجة ، ولم يعلم سبق جمعته خروجاً من خلاف من منع التعدد ولو لحاجة . انظر (المنهاج القويم : ص ٢٧٢) .

(٢) سورة : (الجمعة/ ٢) .

أي : من قبل وجود المعلم ﷺ كانوا في ضلال مبين ، ونُفي عنهم الضلال بالعلم والتَعَلُم . ويتابع سماحة المفتي حديثه فيقول :

فشيخ التربية هو الأساس في فهم أحكام التشريع من غير تعصب ولا تزمت ولا جمود . . وسيرة النبي ﷺ واضحة ، حيث كانت فتواه تتلاءم والواقع .

س٣ ـ سيدي سماحة الشيخ المربي . كيف استطعتم أن تعالجوا التعصب المذهبي ، وتعملوا على إزالته . وهل حققتم ذلك فعلاً ؟ .

ج٣ ـ بتوفيق الله تعالى ، وبعد دراسة منهاج الإسلام المعتمد على الكتاب والسنة ، ودراسة حياة الصحابة والواقع والظروف المحيطة ، ومعالجته بالحكمة والموعظة الحسنة كما أمرنا الله تعالى ، حيث كانت الحكمة شطر النبوة . قال الله تعالى :

﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[1] .

وكذلك ذكرها الله تعالى كإحدى تعاليم النبي ﷺ كما مر معنا في سورة الجمعة . وقول النبي ﷺ الذي كان من تعاليمه اليسر والتخفيف على الناس :

« يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا »[2] .

ففي زماننا هذا ترى بعضهم يتعصب لمذهب معين ، وترى بعضهم الآخر ينفي المذاهب ويدعو للتحرر منها ، وآخر يتشدد بدون فهم ولا دراية وملامح الجمود والجهل تبدو عليه . . فما عسانا أن نعمل إلا وفق منهاج النبي ﷺ مع صحابته ، فعملنا على افتتاح المعاهد الشرعية والكليات

---

(١) سورة (الأنبياء/ ٧٩) .

(٢) صحيح البخاري : رقم ٦٧ . كتاب العلم . عن أنس بن مالك .

المختلفة في علوم الشريعة الإسلامية . . وإنك لترى هذه المعاهد والكليات تجمع صنوفاً شتى من جميع طبقات ومذاهب المسلمين ومن مختلف البلاد الإسلامية وغير الإسلامية . . وكلهم بتوفيق الله عز وجل ينصهر في بوتقة واحدة ألا وهي محبة الله ورسوله ومحبة جميع الأئمة والمسلمين . . فكلهم مجتهدون ، ولسان حالهم يقول كما ورد عن الشافعي : (إذا صح الحديث فهو مذهبي)[1] وهم يحترمون بعضهم بعضاً ، ولم يسجل التاريخ على لسان واحد منهم شتيمة أو نقيصة من بعضهم لبعض . . وكان نقدهم لبعضهم نقداً علمياً أساسه الاجتهاد المشروع والغيرة لبيان وجه الحقيقة والصحة في الفتاوى مع الإخلاص لله تعالى .

فمن هذا المنهاج الذي وفقنا الله تعالى لاتباعه ، ووجود أساتذة أكفاء تزكوا بالتربية الروحية ، استطعنا أن نُظهر للعالم تجربة ناجحة رائدة في ميدان التربية والتعليم ، تصل الماضي بالحاضر ، والحاضر بالمستقبل ، وتربطه برباط الحب والتعاون ، ويعذر بعضنا بعضاً . . وإنما يكون ذلك بعد تزكية نفس الطالب وتطهير روحه في بيت الله تعالى . ولقوله جل جلاله :

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾[2] .

وتحت رعاية شيخ مربّ يستطيع أن يتقبل علوم الشريعة من غير عصبية ولا جمود ولا جهل . يقول البوصيري :

وكلهم من رسول الله ملتمس غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . والحمد لله رب العالمين .

---

(١) الميزان الكبرى : ١/ ٦٠ . وإعلام الموقعين : ٢/ ١٨٢ .

(٢) سورة (التوبة/ ١٠٨) .

اللقاء الثاني مع الشيخ الدكتور رجب ديب

وفي الزيارة التي قمت بها للشيخ رجب ديب ، المدرس الديني في إدارة الافتاء العام بدمشق، و الأستاذ في كلية أصول الدين، وكلية الدعوة الإسلامية في مجمَّع أبي النور الإسلامي بدمشق ، دار الحوار التالي :

س١ـ سيدي ما رأيكم بالتعصب المذهبي الفقهي ؟ .

ج١ـ لا نُقرُّ بالتعصب المذهبي ، وذلك لما سمعنا من أقوال الأئمة ـ رضوان الله عليهم ـ إذ أجمعوا على قول: (إذا صحَّ الحديث فهو مذهبي)[١]، فكلهم بنى الأحكام على ما صح عنده من الحديث بعد كتاب الله تعالى. .

والتعصب المذهبي هو أسلوب ينمُّ عن جهل المتعصب لحقيقة الأئمة ـ رضوان الله عليهم ـ وأهدافهم ، وكيف استنتجوا الأحكام ونسَّقوها ورتَّبوها. . والدارس لواقع كل إمام ، وما كان يحيط به من الظروف سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو فكرية ، دراسة إنصاف وتجرد لعرف فضل الأئمة ومدى خدمتهم لهذه الأمة الإسلامية . .

ومن المفروض على كل من يريد اتباع أي مذهب أن يَدرس حياة صاحب المذهب من كل جوانبها . . فالقفّال والغزالي مثلاً قالا : (لسنا مقلدين للشافعي ، بل وافق رأينا رأيه)[٢] .

وبالعلم ، وبمعرفة الحديث ، وبدراسة رجال الأئمة ، يُفقد ويذهب التعصب ، ويكون اتباعٌ للحق أينما وجد . . اتباع للكتاب والسنة الصحيحة اللذين لا غنى للمسلم عنهما .

---

(١) الميزان الكبرى : ١/ ٦٠ ، وهو قول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى .

(٢) البحر المحيط في أصول الفقه : ٦/ ٢٠٩ .

والمتعصب في نظري : هو من وضع عصابة على عينيه ، فهو لا يدري من أين جاء ولا إلى أين سيصير . . والتعصب : ـ لغة ـ من العَصَبَّية ، والعَصَبِيَّةُ : أن يَدْعُوَ الرجلَ إلى نُصْرةِ عَصَبَتِهِ ، والتَّأَلُّبِ معهم على من يُناوِئهم ، ظالمين كانوا أو مظلومين)[1] .

س٢ـ سيدي هل رأيتم من خلال طلبكم للعلم شيئاً من التعصب المذهبي؟

ج٢ـ خلال دراستي ، وطلبي للعلم ، رأيت الكثير من الشيوخ ، ممن اتصفوا بالتعصب لإمام مذهب دون غيره . . وذلك لأنهم لم يعرفوا الحق ، ولم يدرسوا الحديث ، ولم يفهموا معاني القرآن الكريم ، بل أخذوا أحكاماً من غير معرفة الزمن ولا الهدف . .

وخلال دراستي لأحاديث رسول الله ﷺ لم أجد أي تعارض بين المذاهب والأئمة ، وإنما كان لكل حديث زمن ووقت وجو محيط يناسبه . . والأئمة أفتوا حسب ما وصلهم من الأحاديث . .

فالأحاديث التي تلقَّاها الإمام أبو حنيفة عن شيوخه في العراق ليست بالضرورة أن تكون نفس الأحاديث التي تلقاها الإمام مالك في المدينة . . وبالتالي فإن كل إمام صدرت عنه تعاليم حسب فهمه لكتاب الله تعالى وتأويله لما وصله من أحاديث سيدنا رسول الله ﷺ ، وعلى سبيل المثال فإن الإمام أبا حنيفة بلغه حديث النبي ﷺ عن عائشة رضي الله عنها (أن النبي ﷺ كان يُقبِّل بعض أزواجه ثم يصلي ولا يتوضأ)[2] .

---

(١) لسان العرب : ١/٦٠٦ ، عصب .

(٢) سنن النسائي ، رقم : ١٧٠ ، كتاب الطهارة . أبو داود : ١٥٢ . ابن ماجه : ٤٩٥ . أحمد : ٢٤٥٨٤ .

فأخذ بعدم الوضوء من اللمس[1] .

أما الإمام الشافعي ففهم من قوله تعالى :

﴿ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا . . ﴾[2] . أنه يجب الوضوء لأنه (مظنَّة التلذذ باللمس)[3] .

وأخذ الإمام مالك إلى أنه إذا (قصد اللذة لزمه الوضوء)[4] .

فالشيوخ المتعصبون جهلوا دراسة الحديث . . والعالم لا يسمى عالماً إلا بحالتين :

١ـ دراسة المذاهب كلها ليتمكن من التيسير على الأمة .

٢ـ التعمق في دراسة القرآن الكريم ، والحديث الشريف . فمن جمع هاتين الصفتين فهو العالم ، إذ أن العالم الحق هو الذي يسير على نهج القرآن الكريم ومطلبه المتمثل في قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾[5] .

وفي قوله ﷺ : « يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا »[6] .

وزماننا هذا يحتاج إلى التوسعة لا إلى الضيق، توسعة في الأحكام بدراسة وفهم الكتاب والسنة المشرفة ، لننقل الناس من الشدة والضيق إلى اليسر .

وأذكر من بعض شيوخي : أننا كُنا نقرأ باب الغُسل في أمهات الكتب ،

---

(١) مراقي الفلاح : ١/ ١٢٨ .
(٢) سورة (المائدة/ ٦) .
(٣) المنهاج القويم ، ص ٥٨ .
(٤) بداية المجتهد : ١/ ٦٨ .
(٥) سورة (البقرة/ ١٨٥) .
(٦) صحيح البخاري : رقم ٦٧ . كتاب العلم . عن أنس بن مالك .

ـ هل يجوز للمرأة أن تغتسل مع زوجها ؟ . ـ فشدّدَ في ذلك حتى كاد أن يحرمه . . ولما أتيته بحديث غُسل النبي ﷺ مع زوجته عائشة[1] قال : أما عندي فلا يجوز أن يغتسل الرجل مع زوجته حتى لا ينتقض وضوؤه .

وأعرف رجلاً من العلماء ، كان ثرياً ، ولما طلبنا منه أن يحج ، قال : لا أحج حتى لا أتصور[2] . فترك ركن الحج حتى لا يرتكب مخالفة الصورة ! . .

وأمثلة ذلك كثيرة . . وهذا ما جعلني أنفتح على المذاهب وأدرسها ، حتى إنني درست المذهب الجعفري ، واطَّلعتُ على كثير من أحكامه . وأنا أُعطي الحُكم المقيد بالقرآن، والحديث الصحيح، وأكره العمل بالرخص . أي : الأقوال الضعيفة في المذاهب .

س٣ـ برأيكم ما هو العلاج ، وهل نجحتم في ذلك خلال مسيرتكم ؟ .

ج٣ـ قال رسول الله ﷺ: «خير الأمور أوساطها»[3] . فلا تشدد، ولا تهاون ، والأمر الوسط ما كان بينهما ، وعملاً بقوله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[4] .

والعالم الحق من كان في مسيرته قد أخذ على نفسه العزيمة ، ولكنه يُفتي للناس بالتيسير والرُخصة المقيدة بالحديث الصحيح عندما يلزم الأمر ، دون إفراط ولا تفريط .

وكثيراً ما يضطر الإنسان إلى رخصة أمام شدة وقع فيها . . وإنني لأجد

---

(١) صحيح مسلم : ٤/٤ ، رقم ٣١٨ و ٣١٩ ، كتاب الحيض .
(٢) الصورة التي توضع على جواز السفر .
(٣) شعب الإيمان للبيهقي ، ٥/٢٦١ ، رقم : ٦٦٠١ .
(٤) سورة (البقرة/ ١٤٣) .

أمام كل عقدة تيسيراً ، وإذا ما وقعنا في أزمات شديدة ، فإننا نجد اليسر خير مخرج ومنقذ ، والحكمة فيها خير نجاح . . وإن السنة سيدة المواقف كلها بعد كتاب الله تعالى ، والتقيد بهما أساس النجاح والفوز في الدنيا والآخرة ، وما أظن عالماً تقيد بهما إلا وبلغ درجة الحكمة في مسيرته ، والنجاح في دعوته . . لذلك أدعو العلماء وطلبة العلم إلى فهم ووعي القرآن الكريم ، الوعي الناضج والاستنباط من آياته وأحكامه ما يُخفف على الأمة . . كما وإني أريد من العلماء الانكباب على علوم الحديث ، ودراسة الحديث الدراسة الوافية حتى نخرج من كل ضيق ألم بنا ، وإن دراسة حياة النبي ﷺ دراسة وافية تُعدّ أعظم مرتقى يرتقيه الإنسان في حياته ليَسعد ويُسعد .

وقد درسّت صحيح البخاري بعد مطالعة كتب الحديث الستة وغيرها . . فكنت أجمع مع تفسير البخاري ما ورد من كتب الأئمة وعلماء الحديث ، واستغرق تدريسي له حوالي سبع عشرة سنة ، حيث جمعت الأحكام وأقوال المذاهب مع لمسات علم تزكية الروح وخشية الله تعالى .

إن همة العالم يجب أن لا يكون لها حدود ، ولا تُقيد بمذهب أو كتاب ، وإنما إمامُنا في ذلك الرسول ﷺ الذي ملأ الدنيا بعلمه ، وغير التاريخ بكماله وأخلاقه . .

وهذه هي السنة التي يجب اتباعها . . مع العلم أن المذاهب شرحت وفصلت وبينت . . ومعرفة مختلف أقوال المذاهب يوسع المدارك في فهم كيفية الاستنباط من السنة النبوية الشريفة . وما أجمل ما قاله البوصيري في الأنبياء ، ونحن نقول في الأئمة :

وكلُّهم من رسول الله ملتمس غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم

وإن العالم الذي لم يجعل لوجوده بصمة في تاريخ الزمن ، من تبديل

مجتمع ، أو تغيير أفكار ، أو نجاح تشريع ، فلا يسمى عالماً وإنما يُقال له قارىء . .

وإنني مُقلِّد لما صح من الأحاديث في أقوال الأئمة رحمهم الله تعالى ، ومجتهد في زماني فيما أراه موافقاً للشريعة المطهرة ، وفيه إنقاذ للأمة من ضيقها وشدتها ، حسب الظروف المحيطة ، وبما يتناسب مع تغير الزمن والحال ، ومن لا سلف له لا خلف له .

ولا ننسى أن الإمام مالك[1] رحمه الله تعالى عندما سُئل أربعين مسألة ، أجاب عن أربع مسائل ولم يُجب عن ستة وثلاثين مسألة وقال : دعوها لعالم زمانها .

* * *

(١) البحر المحيط في أصول الفقه : ٦/٢٠٩ .

اللقاء الثالث مع الشيخ الدكتور محمد بشير الباني

وفي الزيارة التي قمت بها للشيخ الدكتور محمد بشير الباني خطيب مسجد بني أمية بدمشق ، ومستشار محكمة النقض ، والمدرس الديني ، وأستاذ في كلية أصول الدين وكلية الدعـوة الإسلامية في مجمع أبي النور الإسلامي ، وسؤالي له عن معنى الالتزام بالمذاهب الفقهية أجاب :

كان الالتزام المذهبي أمراً لا مندوحة عنه ، وكان العلماء الذين اطلعوا على سعة الشريعة يلتزمون مذهباً ، ثم هم لوقوفهم على أسرار الشريعة يأخذون من أقوال المذاهب الاخرى ما يحقق المصلحة العامة أخذاً من هذا القول الذي أوجزه البوصيري :

وكلهـم مـن رسـول الله ملتمـس غرفاً من البحر أو رشفاً من الدّيَم

وكانت الدولة العثمانية تلتزم المذهب الحنفي وتترك لعامة الناس وخاصتهم المذهب الذي اختاروه ، لسعة الشريعة ، حيث تتسع للعام والخاص ، والبادي والحاضر ، والمعسر والموسر ، والضعيف والقوي ، وذي الضرورة صاحب الرخصة وصاحب العزيمة الذي تطيق نفسه العزائم . . فهذا الاتساع جعل الناس في بحبوحة من أمرهم فيرون المصلحة المتفقة مع قول النبي ﷺ :

«إن الدين يسر، ولن يُشاد الدينَ أحد إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا، وأبشروا ، واستعينوا بالغَدوة ، والروحة ، وشيء من الدُّلجة »[1] .

---

(١) صحيح البخاري: رقم ٣٨ ، كتاب الإيمان، عن أبي هريرة.

فإذا وفد عليهم السائل وإن كان يلتزم مذهباً معيناً افتوه بما يوافق حاله ، حتى لا يقع في الضيق والحرج .

فوليُّ الأمر لاطلاعه على سعة الشريعة أَنزل الناس منازلهم ورفق بهم فأعطى الوظائف الدينية حقها من هذه البحبوحة وهذه السعة أخذاً من قوله ﷺ :

« اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشَقَّ عليهم فاشقُقْ عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به »[1] .

وكانت جهابذة العلم وعظماء الفهم للشريعة المطهرة يلتزمون النص القرآني في قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[2] .

ولهم قاعدة أصولية من هذه الآية وهي :

ـ إذا ضاق الأمر اتسع ـ .

أي : إذا وجد المرء نفسه أمام ضيق مذهبي التفت إلى حكمة الشارع فوجد السعة عند غيره. وقد سمعت من سماحة المفتي العام الشيخ الدكتور أحمد كفتارو يوماً لسائل يسأل عن موضوع مذهبي يجيبه بهذا القول :

إنك إذا وقفت أمام ناعورة لا تدير الحركة لثقل الدلو ، أخذت هذه الناعورة فوضعتها أمام مجرى النهر قبل أن يتفرع إلى فروع ، فإذا بشلال الماء يدير هذه الناعورة ويسقي الأرض التي تطلب سقايتها . فلا تأخذ نفسك في الضيق ، وضع ما تسألني عنه أمام أقوال رسول الله ﷺ مفسرة للقرآن الكريم ، تجد حلاً يتسع لما تسألني عنه . فقام الرجل لتوه قائلاً : جزاك الله عني خيراً ، فهمت أن الدين يسرٌ ، وذهب عني ما أجد .

---

(١) صحيح مسلم: رقم ٣٤٠٧ ، كتاب الإمارة ، عن عائشة .

(٢) سورة : (الحج/ ٧٨) .

هذا وإنني أذكر أن محدث الشام المرحوم الشيخ بدر الدين الحسني[1] الشافعي كان يصلي مقتدياً بالشيخ المعضّماني الحنفي في هذا المسجد ـ الأموي ـ وكانت تقام أربع صلوات في المحاريب الأربعة على الشكل التالي :

الشافعي ثم الحنفي ثم المالكي ثم الحنبلي .

وإنما كان ذلك ليدرك الناس كلهم الصلاة جماعة ، من جاء باكراً أو من تأخر . والله أعلم .

* * *

(١) محمد بن يوسف بن عبد الرحمن بن عبد الوهاب المغربي المراكشي البيباني الحسني (١٢٦٧ـ١٣٥١هـ/ ١٨٥١ـ١٩٣٥م) : محدث الشام في عصره ، من قرية الجزولي ، صاحب دلائل الخيرات . قرأ في جامع الزيتونة ثم أقام في دمشق مسقط رأسه . حفظ الصحيحين غيباً بأسانيدهما ونحو عشرين ألف بيت من متون العلوم المختلفة ، انقطع للعبادة والتدريس ، وكان ورعاً صو اماً بعيداً عن الدنيا . ارتفعت مكانته عند الحكام وأهل الشام ، حتى عرض عليه الناس البيعة بالخلافة والثورة على الأتراك الاتحاديين فزجرهم . له شروح ومؤلفات منها : شرح الشفاء ، شرح البيقونية شرح نظم السنوسية ـ وكان له أكبر الأثر في الثورة السورية الكبرى حتى عُد أبا روحياً لها . توفي في دمشق . (الأعلام : ٧/ ١٥٧) . و تاريخ علماء دمشق في القرن ١٤هـ : ١/ ٤٧٣ .

اللقاء الرابع مع الشيخ عبد الرزاق الحلبي

ولدى زيارة المسجد الأموي الكبير بدمشق ، التقيت بالشيخ عبد الرزاق الحلبي إمام ومدير المسجد ، ودار الحوار التالي :

س١ ـ سيدي ما رأيكم بالتعصب المذهبي ؟ .

ج١ ـ لا يوجد عندنا تعصب مذهبي ، ونحن لا نُقر ذلك .

س٢ ـ سيدي لماذا يوجد عدة محاريب في هذا المسجد ، وهل تُصلى عدة صلوات فيها الآن ؟ .

ج٢ ـ وجود عدة محاريب دلالة على أئمة الفقه عند المسلمين ، ولا يوجد الآن أكثر من صلاة جامعة واحدة لكل وقت فريضة .

وكانت صحة الشيخ لا تسمح بالشرح والمناقشة فأنهى كلامه .

* * *

الخاتمة والنتائج

عن سهل بن سعد الساعدي قال . قال رسول الله ﷺ :

« بدأ الدين غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء . قالوا يا رسول الله ومن الغرباء ، قال : الذين يُصلحون عند فساد الناس »[1] .

بدأت رسالة الإسلام بوجود المعلم الأول محمد ﷺ ، وبوحي من السماء ، تنزل آيات الله عز وجل حسب الوقائع والحوادث ، فكان العلم ومكارم الأخلاق ، والقوة والمنعة ، وحضارة الإنسان على هذه الأرض المبنية على أصول سليمة يعشقها كل إنسان ، حتى استطاع الإسلام أن يوحد نصف العالم القديم بأقل من نصف قرن . .

فعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ :

«خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ـ لا أدري ذكر ثنتين أو ثلاثاً بعد قرنه ـ ثم يجيء قوم ينذرون ولا يفون ويخونون ولا يؤتمنون ويشهدون ولا يستشهدون ويظهر فيهم السِّمَن »[2] .

فكانت تلك الحقبة هي خير تلك القرون . . وتوالت الأجيال . . فكان التابعون ثم تابعوهم وبهم ظهرت المدارس الفقهية حسب الظروف المختلفة . .

---

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد : ٧/ ٢٧٨ . ورجاله رجال الصحيح .

(٢) صحيح البخاري : رقم ٦٢٠١ ، كتاب الأيمان والنذور .

وجمعت الأحاديث وصنفت ، وكانت رحمة للناس أن بينت لهم الصحيح من السقيم مع ظهور الفتن وما والاها . .

وبالطبع كان هناك وجهات للنظر في كتاب الله تعالى ـ في المجمل وليس في المبين ـ ولم يرد فيها نص من السنة الصحيحة ، حيث فهم الصحابة بعض آيات القرآن الكريم فهماً متغايراً ، لا يؤدي إلى تشاحن ولا إلى قطيعة ما دام هدفهم التيسير ورفع الحرج ، والمخطىء منهم معذور والمصيب مأجور . .

واجتهد الأئمة من بعد التابعين ووضعوا قواعد ومناهج ، وظهرت مدرستان مميزتان :

١ـ مدرسة الحديث ـ الأثر ـ .

٢ـ ومدرسة الرأي .

حيث لا نص ولا فتوى مأثورة ، وإنما قياس على نص وحسب المصلحة . .

وبذلك ظهرت مصادر التشريع باجتهاد أصحاب المذاهب وأضيفت إلى الكتاب والسنة ، وهي مبنية على الحوادث والأمور المستحدثة ومستندة إلى أصل في التشريع . . فكان الإجماع والقياس ثم ما كان لكل إمام من اجتهاد . .

ثم كان عصر التقليد والتبعية مع بداية عصر التدوين ، وكان ما رافقه من جهل وهوى وسوء للأخلاق أدت إلى جمود العقل والفكر وستر روح وجوهر الدين . . فتراجعت الأمة الإسلامية نتيجة لذلك ، وبدا الشرخ يظهر ، وظهرت بعض المنابذات والمناظرات والتعصبات ، وكل فريق يُناصر ما يعتنق ، وربما عادى غيره من دون تبصر ولا علم ، وقد ذم الله تعالى هؤلاء فقال :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾[1] .

والحقيقة أن المذاهب عبارة عن حلقات لو جُمعت لكانت هي الشريعة المطهرة بشموليتها ، فكل مذهب أخذ عن النبي ﷺ ما روي له من أحاديث في بلده أو وصلت إليه ، ومجموع المذاهب : أقوال وأفعال وتقارير النبي ﷺ هي السنة الصحيحة ، وكانت المذاهب الأربعة لأهل السنة والجماعة وما أفاض الله عليهم من تقوى وورع واجتهاد وإخلاص ، فكان للمذاهب تلك الأهمية والشمولية في رفع الحرج والتيسير والتعاون مع الواقع ، فكانت حياة أهل المذاهب مدرسة عظيمة في الحب والتسامح والتآلف والجمع ونبذ التفرقة . . وقد شهد المتأخرون منهم بالمتقدمين كل خير وبركة، وتتلمذ المتأخرون على يد المتقدمين أو على يد تلامذتهم.

وكانت إيجابية العمل الإسلامي في معرفة ما للتنوع الفقهي من أثر في سلوك الفرد وانعكاسه على المجتمع ، وأن الفقهاء كانوا على صفاء ونقاء وحب وإخلاص لله عز وجل ، هذا الحب والأدب والإخلاص كان طريقاً لكشف الستار عن الحقيقة ، حقيقة الشريعة البيضاء النقية التي ليلها كنهارها . . فرأينا من خلال اللقاءات صحوة إسلامية تنبذ التفرقة والتعصب ، وتعود إلى روح الإسلام وجوهره .

* * *

(١) سورة (الأنعام/ ١٥٩) .